

الحلقة الثالثة والعشرون

سفر الجامعة

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. بدأنا قبل عدة لقاءات بدراسة سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

وفي اللقاء الماضي بدأ سليمان الحكيم الحديث عن مشورته العملية. فنصح الإنسان أن يكتفي بما عنده ولا يركض وراء شهيته. ويبيّن لنا أن شهوة النفس لا تشبع. وأن نقبل بما قسمه الله لنا فلا نتذمّر ولا نشكو. وأن حياة الإنسان تبقى قصيرة ومهما طال، ولهذا عليه أن ينظر إلى الله الذي يعلم المستقبل.

هل تهتم مستمعي بسمعك؟ وهل تعلم مدى أهمية سمعة الإنسان في المجتمع؟ سمعته بين أفراد عائلته، وسمعته بين زملائه في المدرسة أو العمل، وسمعته مع كل شخص يحتك به ويتعرّف إليه؟ فإذا كانت سمعته حسنة لأحبه الجميع. أما إذا تشوّهت فمن الصعب جداً تصحيحها، أو إعادة اعتبارها من جديد. ولهذا اهتمّ سليمان الحكيم بهذا الأمر فكتب قائلاً: "الصيّت خير من الدهن الطيب". (الجامعة ٧:١) أي أن سمعة الإنسان أفضل بكثير من الدهن الطيب، الذي هو غالي الثمن. وكما نعلم فإن المجتمعات القديمة كانت تهتم بالطيب التي تحمل الرائحة العطرة العبة.

وهكذا سمعة الإنسان فإذا كانت جيدة، فهي تكون كهذا الطيب الذي ينشر الرائحة الزكيّة في كل مكان. لكنها إذا إنهارت فمن الصعب جداً، لا بل من المستحيل إعادة بنائها من جديد. فإذا سقطت سمعة الإنسان، واصبح الآخرون يتناقلون الكلام السيء عنه، فكيف يمكن إصلاح هذا الأمر؟ إن الناس يراقبون تصرفاتنا وأعمالنا، لهذا يصبح من الضروري أن نفكر جيداً قبل أن نقدم على أي عمل، لئلا نندم عليه وبعد فوات الأوان. علينا إذن أن نسلك بكل تهذيب وحكمة، ونبتعد عن كل ما هو شرير وفساد، وهكذا نحفظ سمعتنا جيدة. فهل بإمكاننا حقاً ضبط نفوسنا؟ وكيف بنا نحفظ سمعتنا ناصعة؟

هل تفكرّ بالموت يا صديقي؟ أجل بالموت؟ قد تقول أنا شاب وفي مقتبل العمر فلماذا أفكرّ بالموت؟ لكن هل تعلم أن من أراد أن يعيش حكيماً عليه أن يحسب حساباً للموت؟ إن للحياة وجهين، وجه مشرق جميل ووجه معتم مؤلم. ومن الحكمة أن يعرف المرء كيف يحفظ التوازن بين هذين الوجهين.

كتب سليمان الحكيم في سفر الجامعة قائلاً: "يوم الممات خير من يوم الولادة. الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة، لأن ذاك (أي الموت) نهاية كل إنسان. والحي يضعه في قلبه." (الجامعة ٧:١ب - ٢) بما أن الموت يعني النهاية بالنسبة للإنسان، لهذا هو أفضل من يوم الولادة. وكذلك يصبح الذهاب إلى بيت النوح أي بيت العزاء، أفضل من الذهاب إلى بيت الوليمة، أي بيت الأفراح والمناسبات السعيدة. أما السبب فهو يعود لأن إدراك نهاية مصيرنا، أو الذهاب إلى بيت العزاء، يذكرنا بحقيقة حياتنا القصيرة، ويدفعنا لكي نعيش بتعقل، محاولين تهذيب أخلاقنا.

على الإنسان إذن أن ينظر إلى الحياة بشكل شامل ومتوازن. فإذا لم يفكر بالموت أبداً، فإنه يجعل شهواته هي التي تقوده. بينما إذا أدرك أن الموت لا بد أن يأتيه يوماً ما، فإن هذا سيحفّزه لكي يتوب عن ذنوبه، ويقترّب من الله خالقه، ويحسب حساباً لمستقبله الأبدى.

وتابع سليمان الحكيم نصائحه قائلاً: "الحنن خير من الضحك لأنه بكآبة الوجه يُصلح القلب. قلب الحكماء في بيت النوح، وقلب الجهال في بيت الفرح." (الجامعة ٧:٣و٤) يذكرنا الحكيم أن الحزن والمعاناة، هما كالنار المطهّرة التي تطهر الإنسان من الداخل، وتدفعه لكي ينقي قلبه من الداخل. وكما هو معروف فإن الإنسان يتعلّم من المحن والآلام الصعبة، أكثر بكثير من الأيام السعيدة. ولهذا اعتبر سليمان الحكيم هنا، أن الحزن هو عبارة عن فرصة عظيمة للتعلّم، والاقتراب من الله. وأوضح أن الحكيم هو من يجعل قلبه في بيت النوح، على عكس الجاهل الذي يكون قلبه دائماً في بيت الفرح.

صديقي المستمع، إن التفكير بالموت، وبما وراء الموت، أي بمصيرنا الأبدى هو من الأمور الهامة جداً، ويعتبرها الحكيم من الحكمة، ومن مزايا الإنسان الحكيم. لأن الحياة ليست أكلاً وشرباً وملذات فقط، بل هناك أيضاً المستقبل الأبدى الذي يجب أن نستعد له.

ولقد تحدّث لنا المخلص المسيح عن أهمية التفكير والتحضير لمستقبلنا الأبدى، فقال: "لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه. أو ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه. فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله." (بشارة متى ١٦:٢٦-٢٨) أجل يا صديقي، ماذا ينتفع الإنسان لو جمع لنفسه الأموال الكثيرة، وامتلك الممتلكات العديدة، واحتل مركزاً عظيماً في المجتمع، وأصبح مشهوراً جداً، وفي النهاية مات وخسر الحياة الأبدية، وكان مصيره الهالك الأبدى. من الواضح أن هذا الإنسان لم يحسب حساباً لمستقبله الأبدى.

لعلّ السؤال الآن: كيف يستعد الإنسان لمستقبله الأبدي؟ قد يظن الكثيرون أن الاستعداد يكون عن طريق التدين وإداء الواجبات الدينية كالصلاة والصوم وأعمال الإحسان والذهاب إلى الأماكن المقدسة، والابتعاد عن الشر وممارسة الصلاح والخير. إن كل هذه الأمور هي جيدة بحد ذاتها، لكنها لا تستطيع أن تبدل من حقيقة كون الإنسان خاطئاً، ولا تبرره أمام الله، وتجعله بالتالي مستحقاً لديونة الله.

هل تعلم مستمعي أن الله قد أرسل المخلص المسيح لهذه الغاية بالذات، أي لكي يحررنا من عبودية الخطية وليضمن مستقبلنا الأبدي؟ لهذا كان يجب أن يذهب المسيح إلى الصليب لكي يأخذ عقاب خطايانا عوضاً عنا. وهكذا صار بإمكاننا ضمان مستقبلنا الأبدي عن طريق الإيمان بالمخلص المسيح. وعندها يغفر الله ذنوبنا، ويجعلنا مقبولين أمامه. فهل تراك مستمعي تستعد لمستقبلك الأبدي عن طريق الإيمان بهذا المخلص الفريد؟